الإمام جلال الدين السيوطي[1]

سيرة مختصرة

(٨٤٩ - ٩١١هـ)

الدكتور عبد الإله نبهان

كانت حياة السيوطي من ولادته إلى وفاته في عصر المماليك ، ولم يكن عصرهم عصر إبداع في العلم والأدب إنما كان عصر جمع ونقل وترتيب وتأريخ ، وظهر نبوغ السيوطي في هذه المجالات ، وكانت له مشاركة ما في الحياة العامة والرسمية ، لكنه قضى معظم أوقاته - وكان مباركاً له في وقته - في التصنيف والتأليف ، وكتب سيرة حياته بقلمه موجزةً ومطولة[2] ، وترجم له تلاميذه من المحبّين[3] ، وخصومه من المبغضين[4] ، ولو كان لنا أن نكتب سيرة حياته كما يحبّ ، لقمنا بتعداد مؤلفاته الكثيرة ، فقد كانت الحياة عنده هي التصنيف في ضروب المعرفة وجمع العلوم ، ونظم

(١) موارد ترجمته : التحدث بنعمة الله للسيوطي . وحسن المحاضرة ١ : ٣٣٥ له أيضاً والضوء اللامع ٤ : ٦٥ وبدائع الزهور ٤ : ٨٣ وشذرات الذهب ٨ : ٥١ والبدر الطالع ١ : ٣٢٨ .

(٢) سيرته المطوّلة هي التحدث بنعمة الله والموجزة ما كتبه عن نفسه في حسن المحاضرة ١ : ٣٣٥ .

(٣) من ذلك ما كتبه تلميذه ابن إياس في بدائع الزهور ٤ : ٨٣ وكتاب تلميذه عبد القادر الشاذلي « بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين » وما يزال مخطوطاً قيد التحقيق وآمل إنجازه بعونه تعالى .

(٤) من ذلك ماكتبه السخاوي في الضوء اللامع ٤ : ٦٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتون وشرحها وكتابة التاريخ والتفسير وشرح الحديث ... فلا عجب بعد هذا أن نراه قد خصص القسم الأكثر من سيرته الموجزة وسيرته المطوّلة لتعداد مؤلفاته في علوم القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وعلوم العربية ومتعلقاته والتاريخ ومايتصل به ، وكأن سيرته هي آثاره ، ولم يكن له اهتمام برواية أحداث حياته على نحو تفصيلي ، ولم يذكر زواجه ولا أولاده ولا متاعبه ، ولم يتسع في الحديث عن علاقاته مع أمراء زمانه ، ولم يذكرهم إلا لِماماً ، وألقى الشيخ كثيراً مما يهمّ كاتب سيرته وراء ظهره ، واقتصر على الحديث عن شيوخه ووالده ، مما له علاقة بالعلم والمعرفة والصلاح .

والسيوطي هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر كمال الدين أبي المناقب بن محمد بن سابق الدين أبي بكر الخُضيري السيوطي[٥] ، كان والده أبو بكر[٦] من أهل العلم والمعرفة ، فقد ولي القضاء بأسيوط قبل قدومه إلى القاهرة ، فلما قدمها لزم العلامة القاياتي[٧] وأخذ عنه الكثير من الفقه والأصول والكلام والنحو والإعراب والمعاني والمنطق ، كما أخذ عن غيره من شيوخ زمانه كالحافظ ابن حجر[٨] وغيره ، وبلغ في صناعة التوقيع النهاية ، وهو الذي كتب نسخة العهد[٩] للخليفة المستكفي با لله أبي الربيع

(٥) اسمه ونسبه مختصراً عن حسن المحاضرة ١ : ٣٣٥ .

(٦) ترجم لوالده في حسن المحاضرة ١ : ٤٤١ وفي نظم العقيان : ٦٥ .

(٧) القاياتي محمد بن علي (٧٨٥ تقريباً ـ ٨٥٠هـ) قاضي القضاة العلامة النحويّ . حسن المحاضرة ١ : ٤٤٠ ونظم العقيان : ١٥٤ .

(٨) ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) مولده ووفاته بالقاهرة كان حافظ الإسلام في عصره . البدر الطالع ١ : ٧٩ . نظم العقيان ٤٥ .

(٩) انظر صورة العهد في تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥١١ وانظر ترجمة المستكفي في الموضع نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سليمان بن المتوكل ، وكان إماماً له .

تفيدنا هذه الإشارات التي أوردها السيوطي مجتمعة أو مفترقة ، في معرفة نشأته الأولى ، فمنها عرفنا أنه نشأ في كنف والدٍ له بالعلم عناية ، وله عند ه رعاية ، وأنه كان على صلةٍ بالخليفة إماماً له ، فلا عجب بعد ذلك أن امتلأت نفس الفتى – وهو يسمع عن أبيه مايسمع – إعجاباً بوالده ، وعزماً على أن يسير على سننه ، ويبالغ في طلب العلم ، بعد أن عزّزت ذلك في نفسه دواعٍ أُخر .

ولد السيوطي في القاهرة ليلة الأحد مستهلّ رجب عام ٨٤٩هـ – ١٤٤٥م في أيام حكم السلطان الظاهر سيف الدين جُقمق[١٠] (٨٤٢ – ٨٥٧هـ) وسمّاه والده عبدَ الرحمن ، ولقبه جلالَ الدين ، ويُستفاد مما كتبه السيوطي بعد ذلك عن نفسه[١١] ، أنه دُفع في طريق العلم منذ نعومة أظفاره ، فإنه ذكر أنّ والده توفي وله من العمر خمس سنين وسبعة أشهر ، وقد وصل في حفظه القرآن إلى سورة التحريم .. وتابع السيوطي بعدئذٍ مسيرة حياته مشمولاً برعاية نفرٍ من العلماء أصحاب أبيه ، منهم العلامة كمال الدين بن الهمام[١٢] ، الذي طلب جلالَ الدين عقب وفاة والده وقرره في وظيفة الشيخونية[١٣] بعد أبيه ، وكان والد السيوطي مدرساً للفقه بالجامع الشيخوني ، وهكذا رُسم خط سير حياة اليتيم وهو مايزال صبياً لمّا يبلغ

---

(١٠) جقمق : حسن المحاضرة ٢ : ١٢١ .

(١١) حسن المحاضرة ١ : ٣٣٦ .

(١٢) ابن الهمام : محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد كمال الدين (٧٩٠ – ٨٦١هـ) كان علاّمة محققاً جدلياً نظاراً . حسن المحاضرة ١ : ٤٧٤ .

(١٣) ذكرها السيوطي عدة مرات في حسن المحاضرة ١ : ٣٩٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ٤٨٢ ، ٥٠٩ ، ٥٢٩ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السادسة من عمره بعد .

ويبدو أن جلال الدين طبع منذ صغره على الدأب والمثابرة ، فلا سبيل للملل إلى نفسه ، ولا تصرفه صوارف الحياة التي تشغل أترابه وتملأ أوقاتهم ، وقد وهب ذاكرة قوية ، وقدرة على الحفظ سريعة ، فما كاد يبلغ الثامنة حتى ملأ بالقرآن الكريم صدره حفظاً ، وأتبع ذلك بحفظ عدة متون في علوم مختلفة كعمدة الأحكام[١٤] ومنهاج النووي[١٥] وألفية ابن مالك[١٦] ومنهاج البيضاوي[١٧] ، ويقول السيوطي إنه عرض المتون الثلاثة الأُول عام ٨٦٤هـ على شيخ الإسلام علم الدين البُلْقيني[١٨] وعلى شيخ الإسلام شرف الدين المناوي[١٩] وعلى قاضي القضاة عز الدين الحنبلي[٢٠] وعلى شيخ الشيوخ أمين الدين الأقصرائي[٢١] ، وغيرهم . وتلقّى منهم

---

(١٤) هناك عدة كتب بهذا العنوان أحدها في الفروع لابن قدامة الحنبلي ت ٦٦٠هـ ، والثاني في الحديث لابن دقيق العيد ت ٧٠٢هـ وأظنه يريد هذا الأخير . كشف الظنون ٢/١١٦٤ .

(١٥) منهاج النووي هو منهاج الطالبين في مختصر المحرر في فروع الفقه الشافعي للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦ . كشف الظنون ٢ : ١٨٧٣ .

(١٦) الخلاصة الألفية ، اختصرها من مطولته الكافية الشافية .

(١٧) منهاج البيضاوي وهو : منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي ت ٦٨٥هـ ، كشف الظنون ٢ : ١٨٧٨ .

(١٨) علم الدين البُلقيني : صالح بن عمر (٧٩١ – ٨٦٨هـ) . حسن المحاضرة ١ : ٤٤٤ ونظم العقيان ١١٩ وشذرات الذهب ٧ : ٣٠٧ .

(١٩) شرف الدين المناوي (٧٩٨ – ٨٧١هـ) شرف الدين يحيى بن محمد ، شيخ الإسلام ، قاضي القضاة . حسن المحاضرة ١ : ٤٤٥ .

(٢٠) عز الدين الحنبلي : أحمد بن إبراهيم بن نصر الله ، قاضي القضاة (٨٠٠ – ٨٧٦هـ) انظر حسن المحاضرة ١ : ٤٨٤ .

(٢١) الأقصرائي أمين الدين يحيى بن محمد بن إبراهيم (٧٩٥ – ٨٨٠هـ) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الإجازة ، وما نظنّ السيوطيّ إلا صادقاً فيما أخبر به عن نفسه ، فمن أتمّ حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة ، كان على إتمام هذه المتون في الخامسة عشرة أقدر ، ومن سار هذه السيرة المباركة في طلب العلم كان جديراً أن تتفتّح أمامه سُبُلُه ، وتذلّل حزونه ، وتلين صعابه ، ولا سيّما أن شيوخه ، وهم شيوخ زمانهم آنذاك ، يرعونه بعين الرأفة ، ويحوطونه بالعناية ، ويحفظون به وصية والده الصالح ... وكان جلال الدين يعتقد بعد أن أجيز بمحفوظاته أنه لم يبدأ الاشتغال بالعلم بعد ، وإنما كان في طور التأسيس . وطرائقهم في ذلك الزمان أن يحفظ الطالب المتن ، فإذا أتقن حفظه ، مدّوا له أسباب الفهم بالشرح ، لذلك رأيناه يحفظ ألفية ابن مالك ويجاز بها عام ٨٦٤هـ ، ثم يقول إنه قرأها في العام نفسه بعد ذلك على الشيخ شمس الدين محمد بن موسى الحنفي[٢٢] الإمام بخانقاه شيخو قراءةَ دراية من أولها إلى آخرها ، فأجيز بالإقراء والتدريس سنة ٨٦٦هـ . وبدأ اشتغاله بالعلم بعد إجازته بالحفظ بقراءة علم الفرائض على علامة زمانه في فنّه – كما يذكر – وهو شهاب الدين الشارمساحي[٢٣] ، وكان ذلك عام ٨٦٥هـ . وقرأ صحيح مسلم رواية على الشيخ محمد بن موسى الحنفي وسمع عليه الشفا[٢٤] ، وكانت نهاية ذلك مستهلّ سنة ٨٦٦هـ إذ أجيز كما تقدّم .

= انتهت إليه رئاسة الحنفية في عصره . نظم العقيان : ١٧٨ وحسن المحاضرة ١ : ٤٧٨ .

(٢٢) شمس الدين محمد بن موسى بن محمود ، إمام الشيخونية ، ورد ذكره في كتاب التحدث بنعمة الله : ٦٨ ، ٢٣٧ .

(٢٣) الشارمساحي : شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٦٥هـ) نظم العقيان : ٤٣ والتحدث بنعمة الله : ٤٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢٤) الشفا في تعريف حقوق المصطفى لعياض بن موسى القاضي اليحصبي ت ٥٤٤هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان جلال الدين يحضر في هذه السنّ عدة مجالس علم ، ويقرأ في الوقت نفسه على عدة شيوخ ، ويخيّل إلى الناظر في سيرته وفي مسموعاته وفي مقروءاته وفي أسماء شيوخه ، أن الرجل كان لا يكاد ينام ، فهو ينهل من العلم قراءةً وسماعاً بنهم بالغ ، فإذا ماخلا بنفسه استظهر ماقرأ ، وأخذ يجرب التصنيف ، ففي المدة المشار إليها آنفا كان يقرأ على الشيخ شمس الدين الحنفي[٢٥] خازن الكتب بالشيخونية ، قرأ عليه متن الكافية لابن الحاجب[٢٦] ، وشرح الكافية لابن الحاجب أيضاً ، وقرأ عليه مقدّمة إيساغوجي في المنطق وشرحها للكاتي[٢٧] ، وقطعةً من كتاب سيبويه ، وسمع عليه « شافية ابن الحاجب » وشرحها للجاربردي[٢٨] .. وفي الوقت نفسه كان السيوطي يكتب مسودات تصانيف ، فكتب شرحاً منثوراً « للآجُرُّومية »[٢٩] أتبعه بشرح منظوم ، وشرح كتاب « الجمل »

---

(٢٥) شمس الدين الحنفي : محمد بن سعد المرزباني . خازن الكتب بالشيخونية ذكره في التحدث بنعمة الله ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ .

(٢٦) ابن الحاجب : عثمان بن عمر . ولد في الصعيد وتوفي في الإسكندرية عام ٦٤٦ . بغية الوعاة ٢ : ١٣٤ .

(٢٧) إيساغوجي : لفظ يونانيّ معناه الكليات الخمس ، أي : الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام ، وهو باب من الأبواب التسعة للمنطق .. وصنف فيه كثيرون منهم فرفريوس الصوري وعبد اللطيف البغدادي . وشرحه المشار إليه هنا هو شرح حسام الدين حسن الكاتي المتوفّى سنة ٧٦٠هـ (كشف الظنون ١ : ٢٠٦) .

(٢٨) الجابردي : أحمد بن الحسن فخر الدين . توفي في تبريز عام ٧٤٦هـ بغية الوعاة ١ : ٣٠٣ .

(٢٩) الآجُرّومية : متن نحوي شديد الإيجاز ، وضعها ابن آجُرُّوم (٦٧٢ – ٧٢٣هـ) محمد بن محمد بن داود الصنهاجي . مولده ووفاته بفاس . وذكر الزركلي أن آجُرُّوم معناه بلغة البربر الفقير . الأعلام ٧ : ٣٣ ط ٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للزجاجي[٣٠] ، ووضع شرحاً على الكافية الكبرى لابن مالك[٣١] . وكتب غير ذلك ، ثم غسل ماكتبه كلّه .. وليس من شك في أن جلال الدين كان يجرب مقدرته في التأليف ، ويدرّب قلمه ، وقد ملأت نفسه المطامح في أن يكون مؤلفاً يذكره التاريخ في أعلام رجاله ، وتدلّ أسماء مؤلفاته التي غسلها على توجّهاته ، وعلى الطريقة التي سيتّبعها بعد ذلك في مؤلفاته ، فإنه سيكون شأنه شأن علماء عصره في اتجاههم إلى شرح المتون ووضع الحواشي وجمع ما تفرق وإعادة تصنيفه ..

ونعود إلى سيرة جلال الدين الذي انصرف في شوال عام ٨٦٥هـ إلى الفقه ، ولزم دروس شيخه قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني ، وشرع بالقراءة عليه ، فقرأ جملةً من كتب الفقه لم يتمّها ، وإنما كان يقرأ من كل كتاب قسماً ، فقد قرأ عليه قطعة من كتاب « التدريب » لسراج الدين عمر البلقيني الشافعي ، بدأ من أوّله وانتهى إلى كتاب الزكاة ، وكذلك قرأ من أوّل « التنبيه »[٣٢] إلى الزكاة ، وسمع قطعةً من « الروضة »[٣٣] من باب القضاء ، وقطعة من « التكملة »[٣٤] للزركشي من إحياء الموات إلى نحو

---

(٣٠) الزجاجي : أبو القاسم ، عبد الرحمن بن إسحاق . عاش ببغداد ، وتوفي بطبرية ، وكتابه الجمل ، كتاب موجز في النحو ، له شروح كثيرة بعضها مطبوع . بغية الوعاة ٢ : ٧٧ .

(٣١) ابن مالك : أبو عبد الله محمد بن عبد الله . ولد بجيّان بالأندلس . وتوفي بدمشق عام ٦٧٢هـ . بغية الوعاة ١ : ١٣٠ .

(٣٢) التنبيه : في فروع الشافعية ، للشيخ أبي إسحاق الشيرازي إمام الشافعية في عصره . توفي سنة ٤٦٧هـ . كشف الظنون ١ : ٤٨٩ .

(٣٣) الروضة : في فروع الشافية = روضة الطالبين وعمدة المتقين للإمام يحيى بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ .

(٣٤) التكملة : تكملة شرح المنهاج للنووي . صنفها بدر الدين محمد بن عبد الله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوصايا ، كما سمع عليه من أول « الحاوي الصغير »[٣٥] إلى باب العدد ، ومن أوّل كتاب « المنهاج »[٣٦] إلى الزكاة . وفي هذه السنة استيقظت في نفسه شهوة التصنيف ، فقادته أفكاره إلى أن يصنّف تصنيفاً يشرح فيه الاستعاذة والبسملة ، وتصنيفاً آخر يشرح فيه الحوقلة والحيعلة ، وقدّمهما إلى شيخه البلقيني ، ورغب الشيخ في تشجيع تلميذه والأخذ بيده ، ودفعه في طريق التصنيف ، فأخذهما ووقف عليهما ، وكتب له تقريظاً ، وفرح السيوطيّ بذلك ، واعتز بتقريظ شيخه ، وإن اعترف بعدئذٍ أنه لم يرض عنهما ، قال « وهذان الكتابان وإن اشتملا على فوائد يبتهج بها المبتدئ ، فإني لا أعتبرهما الآن ، ولولا أنّ شيخنا شيخ الإسلام وقف عليهما وشرّفهما بخطّه لغسلتهما في جملة ماغسلته »[٣٧] .

ولم يلبث شيخه البلقيني أن أجازه بالإفتاء والتدريس في شوال عام ٨٦٦هـ ولما يبلغ من العمر الثامنة عشرة ، وتأهب لشغل منصبه مكان أبيه ، مدرساً للفقه بالجامع الشيخوني . وطلب من شيخه أن يسمح له بمباشرة الدرس بنفسه ، فأجيب إلى ما أراد ، ولبّى شيخه شيخ الإسلام البلقيني طلب تلميذه السيوطي فحضر عنده في أول يوم تشريفاً له ، كما جرت العادة بذلك ، واحتفل السيوطي لدرسه الأول ، وتأهب له وأعد عدّته ، فإن عليه أن يثبت أنه بالتدريس جدير وعليه قدير أمام شيخه وأمام

=الزركشي ت ٧٩٢هـ وهو صاحب كتاب البرهان في علوم القرآن . انظر كشف الظنون ١ : ١٨٧٤ والبرهان في علوم القرآن ١ : ٨ .

(٣٥) الحاوي الصغير في الفروع للشيخ نجم الدين عبد الغفار بن عبد الكريم القزويني الشافعي ت ٦٦٥ ، وهو من الكتب المعتبرة بين الشافعية .

(٣٦) انظر الحاشية رقم ١٥ .

(٣٧) بهجة العابدين ص ١٧ (مخطوط جستربيتي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحضور ، وكانت نفسه مفعمةً بالرهبة من جلال الموقف ، وخاصة أنه لما أعلم الناس أن شيخ الإسلام سيحضر درسه كذبه بعضهم ، وهو يقول « فلم يصدّقْ أكثرُ الحسَدة »[٣٨] وذهب وزار مقام الإمام الشافعي وتوسل به ودعا ربّه أن يأخذ بيده .

وفي يوم الثلاثاء التاسع من ذي القعدة سنة ٨٦٧هـ حضر شيخ الإسلام البلقيني ومعه نفر من الشيوخ ، وحضر جمهور من طلبة العلم وجمهور من الحسدة ليشهدوا أول درس لجلال الدين .

وكان السيوطي أعدّ خطبةً يفتتح بها درسه ، ولم يجد أنسب من أن يفتتح درسه بخطبة الإمام الشافعي التي صدّر بها كتابه العظيم « الرسالة »[٣٩] وهي خطبة اشتملت على نفيس الكلام وبديع القول ، وصيغت بأسلوب رائع وعبارة معجبة بليغة ، فلا بدع أن كانت تحفظ وتفتتح بها الخطب أو الدروس ، لذلك سار السيوطي على سنن شيخه البلقيني الذي كان يسير على سنن أبيه وأخيه في الافتتاح بها ، وسرّ البلقيني من افتتاح الدرس بخطبة الإمام الشافعي ، ولم يحدثنا السيوطي عن وقع درسه على نفوس الناس ، ويبدو أنه كان راضياً عن نفسه ، مطمئناً إلى ما قدّمه بين يدي شيخه وحضور درسه من الفضلاء والشيوخ .

لم يحدثنا السيوطي عن دروسه ولا عن تلاميذه في هذه المرحلة ، بل إنه أصرَّ في سيرته على أنه لم يتوانَ في طلب العلم ، وفي السعي إلى مجالسه ،

---

(٣٨) المرجع السابق : ص ١٨ .

(٣٩) كتاب الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي ١٥٠ - ٢٠٤ هو أول كتاب ألف في أصول الفقه . قال الشيخ أحمد محمد شاكر : بل هو أول كتاب ألف في أصول الحديث أيضاً . انظر الرسالة : المقدمة : ١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي إقذاء الجفون بالسهر لتحصيل أوابده وجمع شوارده ، وكان – رحمه الله – يتبع نظاماً صارماً في حضور مجالس العلم ، فإنه لم ينقطع عن دروس شيخه البلقيني إلى أن توفي ، ولعلّه من المفيد أن أدع السيوطي يتحدث عن نظامه قال :

« واستمررت بعد ذلك – بعد الإجازة – ملازماً لدروس شيخنا شيخ الإسلام ، فلم أنفك عنه إلى أن مات ، وكنت أذهب من الفجر إلى دروس البلقيني فأحضر مجلسه إلى قرب الظهر ، ثم أرجع إلى الشُمُنّي[٤٠] ، فأحضر مجلسه إلى قرب العصر ، هكذا ثلاثة أيام في الجمعة : السبت والاثنين والخميس . وكنت أحضر الأحد والثلاثاء عند الشيخ سيف الدين[٤١] بكرةً ، ومن بعد الظهر في هذين اليومين ويوم الأربعاء عند الشيخ محيي الدين الكافِيَجي »[٤٢] وواضح أن السيوطي بعد أن ألقى درسه الأول لم يتفرّغ للتدريس ، وربما كان درسه الذي ألقاه مجرد إشعار بكونه مجازاً ثم تابع طلب العلم ، ربّما كان يدرّس درساً كل أسبوع أو درسين ؟ ولكن لا سبيل إلى الجزم بذلك ، كلّ ما يمكن أن نؤكده أنه كان منصرفاً إلى الشيوخ وإلى طلب العلم ، فقد ذكر اشتغاله على الشيخ شمس الدين

---

(٤٠) الشُمنّي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن حسن القيمي الداري (٨٠١ – ٨٧٢هـ) . حسن المحاضرة ١ : ٤٧٤ وبغية الوعاة ١ : ٣٧٧ .

(٤١) سيف الدين الحنفي : محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا البكتمري (٨٠٠ – ٨٨١هـ) انظر حسن المحاضرة ١ : ٤٧٨ وبغية الوعاة ١ : ٢٣١ وشذرات الذهب ٧ : ٣٣٢ .

(٤٢) النص من بهجة العابدين ص ١٨ – ١٩ (نسخة جستربيتي) ومحيي الدين الكافيجي هو محمد بن سليمان بن سعد قال عنه السيوطي : أستاذ الدنيا في المعقولات . ولد قبل سنة ثمانمائة وتوفي سنة ٨٧٩هـ . حسن المحاضرة ١ : ٥٤٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحنفي خازن الكتب بالشيخونية ، وعلى قاضي طرسوس علاء الدين[٤٣] ، كما لزم دروس شيخ الإسلام شرف الدين أبي زكريا يحيى بن محمد المناوي[٤٤] قاضي القضاة ودروس العلّامة سيف الدين محمد بن محمد الحنفي وسمع عليه : الكشاف والتوضيح وحاشية الشيخ عليه ، وشرح الشذور وتلخيص المفتاح والعضد[٤٥] ، كما أنه لزم دروس الشيخ محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الكافِيجي الحنفي الرومي ، فأخذ عنه الفنون قراءةً وسماعاً من تفسير وحديث وأصول دين وأصول فقه وعربيةٍ ومعان ، وسمع عليه الكشاف وحواشيه والمغني وحاشيته[٤٦] وغير ذلك من الكتب ، وكانت ملازمة السيوطي لشيخه هذا أربعة عشر عاماً واستفاد منه كثيراً ، قال « مادخلت إليه يوماً من الأيام إلا استفدت منه ما لم أسمعه قبل ذلك من نفائس التحقيقات الجليلة[٤٧] » وهذا الشيخ أجاز السيوطي بتدريس سائر

---

(٤٣) ذكره صاحب بهجة العابدين نقلاً عن السيوطي ص ١٩ والنص في التحدث بنعمة الله ٢٤١ .

(٤٤) انظر الحاشية ١٩ .

(٤٥) الكشاف للزمخشري ، والتوضيح لابن هشام ، وهو المعروف بأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك . (كشف الظنون ١ : ٥٠٨) . وشرح الشذور في النحو لابن هشام ، وتلخيص المفتاح لجلال الدين القزويني وهو في المعاني والبيان والبديع ، أما العضد فيبدو لي أنه يقصد به العقائد العضدية لعضد الملّة والدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفى سنة ٧٥٦هـ . وإذا كانت كلمة « العضد » قد حرّفت عن العضدي فالمقصود بها كتاب الإيضاح العضدي لأبي علي الفارسي المتوفى ٣٧٧هـ .

(٤٦) المغني هو مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري ، وعليه حواشٍ كثيرة .

(٤٧) التحدث بنعمة الله ٢٤٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفنون ، وقرره مدرساً للحديث بالشيخونية بعد وفاة الفخر المقسي[٤٨] .

وفي أثناء ملازمة السيوطي للكافيجي ، ظهرت من السيوطي بوادر تدلّ على انصرافه عن علوم المعقول ، وكان الإمام الكافِيجي من كبار العلماء بالمعقولات ، وذكر السيوطي أن شيخه صنّف كتاباً سماه « أنوار السعادة في علوم الكلام » وطلب منه أن يكتب له شرحاً ، لكنّ نفس السيوطي المنصرفة عن هذه العلوم أبت عليه ، وطلب من شيخه أن يعفيه من هذه المهمة ، وهذا الانصراف رغبة عن علم المعقول سيتحول إلى عداءٍ لهذه العلوم عند السيوطي فيما بعد ، وسيؤلف كتابه « صون المنطق والكلام عن فنّ المنطق والكلام[٤٩] » . وتابع السيوطي طلب العلم موزّعاً في كل اتجاه ، فنراه يقرأ في علم الميقات والطب والفقه ، ويلازم الشُّمنّي من أول سنة ٨٦٨هـ ، ويأخذ عنه الحديث والعربية والمعاني ، وذكر أنه قرأ عليه قطعة من « المطوّل »[٥٠] و« التوضيح »[٥١] لا بن هشام ، ولمّا كان السيوطي متعجلاً متلهفاً ليعدّ في المؤلفين ، وليسلك في نظام المصنفين ، فإنه قدّم شرحاً صنّفه على ألفية ابن مالك إلى شيخه الشُّمنّي فقرّظه ، وكذلك فعل لما قدّم له كتابه الآخر « جمع الجوامع في العربية »[٥٢] ولم

(٤٨) الفخر المقسي : عثمان بن عبد الله من فقهاء الشافعية . ورد ذكره في عدة مواضع في كتاب التحدث بنعمة الله : ١٠ ، ٩١ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ .

(٤٩) صون المنطق والكلام طبع بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٧ بعناية علي بعناية علي سامي النشار وأعاد نشره سنة ١٩٧٠ في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(٥٠) المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازاني (في البيان والمعاني والبديع) .

(٥١) التوضيح = أوضح المسالك .

(٥٢) جمع الجوامع في العربية : نشر مع شرحه (همع الهوامع) في مصر سنة ١٣٢٧هـ وفي الكويت بتحقيق د . عبد العال سالم مكرم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتفكّ السيوطي عن شيخه الشُّمنّي حتّى توفي في ذي الحجة عام ٨٧٢هـ فرثاه بأربع قصائد(٥٣) .

كان السيوطي حريصاً على الإجازات من العلماء ، وعلى السماع منهم والرواية عنهم ، فلا غرابة أن جمع معجماً كبيراً بلغ فيه تعداد شيوخه الذين سمع منهم أو أجازوه أو أنشدوه شعراً نحواً من ستمائة نفس(٥٤) .

وفي عام ٨٦٩هـ اتجه السيوطي إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، ولم يفوّت في هذه الرحلة فرصة اللقاء مع العلماء والسماع منهم ، ومن الطريف أن السيوطي استفاد من الوقت وهو في السفينة ، فعمل على اختصار الألفية نظماً ، واختتم نظمه بقوله :

نظمتها في نحو ثلثي أصلها ... ولن ترى مختصراً كمثلها
ختمتها بظهر بحر القُلْزم ... مسافراً للبلدِ المحرّم
وفي ربيعٍ لاح زهر نظمها ... وفي جمادى فاح مسك ختمها
من عام تسعة وستين التي ... بعد ثمان مائةٍ للهجرةِ(٥٥)

وبهذه المناسبة ألف كتابه « النحلة الزكية في الرحلة المكية » . وبعد عودته من الحجاز قام برحلة إلى دمياط والإسكندرية وأعمالهما، وتحدث عن هذه الرحلة في كتابه « قطف الزهر في رحلة شهر » والسيوطي لا يهتم بما يشاهده الرحالة عادة ، ولا يهتم بذكر انطباعاته ، فالحياة عنده كلها قراءة وسماع ورواية وإجازة ولقاء رجال ، وكان يطرب ويُسرّ إذا مُدح من قِبل أحد العلماء ، ويروي ما مُدح به ، فقد ذكر في هذه الرحلة أن الشيخ

(٥٣) التحدث بنعمة الله : ٤٣ وبهجة العابدين : ٢٢ .
(٥٤) التحدث بنعمة الله : ٧٩ .
(٥٥) المرجع السابق : ٨٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفاضل شمس الدين محمد بن علي العطائي سمع عشارياته وكتبها ، ثم مدح السيوطي وكتب له :

أرى شـــاباً مـا أرى مثـله في العلم والدين معاً والصلاحْ
تبسّـــم الثغـر بـه ضـاحكاً وافـترّ عن درّ وشـهْـدٍ وراحْ
شـــبهتـــه لمـــا بـدا مقبـــلاً بالشيخ محيي الدين وابن الصلاح

ولاشك أن السيوطي قد سرّ كثيراً ، وامتلأ عجباً بنفسه ، لما شبّه بمحيي الدين النووي وابن الصلاح الشهرزوري[٥٦] .

ورجع جلال الدين إلى القاهرة ، ونصب نفسه للتدريس في شوال عام ٨٧٠هـ ، وتوافد عليه الفضلاء كما يقول ، وقرؤوا تصانيفه ومنهم من لزمه عشر سنوات ، وأقام بالقاهرة حتى وفاته ، ولم تكن له رحلة إلى غير ما ذكرناه ، أي رحلة الحج ورحلة دمياط والإسكندرية ، وإن أولع المحدّثون واهمين بذكر رحلات له أخر[٥٧] .

وكان السيوطي مولعاً بالحديث النبوي الشريف ، بروايته ودرايته ومصطلحه ، لذلك رأيناه يعقد مجلساً لإملاء الحديث الشريف بالجامع الطولوني[٥٨] ، ويقول : إنه جدد بذلك ماكان انقطع من عشرين سنة ، وجعل مجلس الإملاء بعد صلاة الجمعة ، وكان بدء ذلك يوم الجمعة

(٥٦) ابن الصلاح : عثمان بن عبد الرحمن ٥٧٧ ـ ٦٤٣هـ توفي بدمشق أحد الفضلاء المقدّمين في الفقه والتفسير والحديث . وهو صاحب كتاب « معرفة أنواع الحديث » المعروف بمقدمة ابن الصلاح .

(٥٧) معظم الذين ترجموا له من المعاصرين وقعوا في هذا الوهم في مقدمات كتب السيوطي التي حققوها . انظر على سبيل المثال : المزهر ٢ : ٦٥٧ . الاقتراح في أصول النحو : ٨٣ ط د . فجّال . معترك الأقران ١ : ز .

(٥٨) الجامع الطولوني : بناه أحمد بن طولون ، وبدأ ببنائه سنة ٢٦٣هـ وفرغ منه سنة ٢٦٥هـ . انظر خطط المقريزي ٣ : ١٤٢ وحسن المحاضرة ٢ : ٢٤٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مستهلّ عام ٨٧٢هـ ، ولم يطل به الحال ، فإنه سرعان ما قطع الإملاء في شعبان سنة ٨٧٣هـ بسبب وقوع الطاعون[٥٩] .. ثم جدد مجلس الإملاء عام ٨٧٤هـ فأملى ثلاثين مجلساً ثم قطع ذلك .

وفي هذه المرحلة نفسها – والسيوطي يعمل موزعاً في شتّى الاتجاهات – بدأ بالإفتاء ، وكان البدء عام ٨٧١هـ أي عندما كان في الحادي والعشرين من العمر . وستتراكم هذه الفتاوى ليجمعها بعد ذلك في مجلدات ثلاثة .

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نتحدث عن السيوطي دون الإشارة إلى مؤلفاته ، إن مؤلفاته كانت نسيج حياته ، ومن خلالها وبها كان يؤكد ذاته ويعزز شخصيته ، ومن بداية حياته العلمية أراد أن يكون من المصنفين ، وأن يكون من المحدّثين ، وإلا فما معنى أن يعقد مجلساً لإملاء الحديث سوى أنه كان يتشبه بابن حجر[٦٠] أو بابن عساكر[٦١] ، وظنّ الأمر سهلاً ميسراً ، فعقد المجالس وتصدّرها ، لكن لم تلبث هذه المجالس أن انقطعت ، لماذا ؟ لا ندري ، ولكن نظنّ أن السيوطي والناس الذين يملي عليهم شعروا بعدم جدواها بعد أن تحمّسوا لها تقليداً للسلف الصالح ... وإذا صدّقنا مارمى به السخاويُّ السيوطيَّ من أنه جمع حوله طائفةً من العوام بجامع ابن

(٥٩) صنف السيوطي عدة رسائل في الطاعون منها : رسالة في الطاعون منها نسخة في المكتبة الصديقية بحلب ١٣٨ ومنها ما رواه الواعون في أخبار الطاعون منها نسخة في الظاهرية بدمشق . ١١٥٨ حديث وبدار الكتب المصرية ١٣٣ مجاميع ، ١٠٢ مجاميع وفي ليدن ٢/٤٥٥ والخزانة التيمورية .

(٦٠) انظر التعليق ٨ .

(٦١) ابن عساكر : علي بن الحسن بن هبة الله . محدّث الديار الشامية (٤٩٩ – ٥٧١) ، انظر طبقات الشافعية الكبرى ٤ : ٢٧٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طولون ، وأنه صـار يملي على بعضهم ممن لا يحسنُ شيئاً[٦٢] ، كان لدينا سبب آخر وجيه لتعليل وقف مجالس الإملاء .

كانت أمنيـة السيوطي أن يصـل في الفقـه إلى رتبة سراج الدين البلقيني ، وأن يصل في الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر ، لذلك رأيناه – من خلال سيرته – يبالغ في قراءة الفقه وسماع الحديث ، بل يسرع في التصدّر لإملائه ، وقد ذكر أنه شرب ماء زمزم مستعيناً به لأمور من أهمّها أن يصل ببركته إلى رتبة هذين العلَمين في الفقه والحديث[٦٣] .

وكان السيوطي في مرحلة الطلب ، وفي المرحلة التي تلتها ، ملازماً للمدرسة المحمودية ، حتى إنّ السخاوي اتّهمه بالإغارة على كتبها وادعائها لنفسه ، وكان لهذه المدرسة مكانة مرموقة ، قال المقريزي « أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستادار في سنة ٧٩٧هـ ، ورتّب بها درساً وعمل فيها خزانة كتب ، لا يُعرف اليوم بديار مصر والشام مثلها ، وهي باقية إلى اليوم ، لا يُخرج لأحدٍ منها كتاب إلا أن يكون في المدرسة ، وبهذه الخزانة كتب الإسـلام من كلّ فن ، وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر[٦٤] » . وماندري ما نصيب تهمة السخاوي للسيوطي من الصحة ، ولا يمكننا إلا أن نحمل الأمر – وقد غبر الجميع – على أنه ضرب من الطعن الذي تمليه ظروف المعاصرة ، ولكن الحقّ الذي لا يمكن إنكاره ، هو أنّ السيوطيّ استفاد فائدةً عظيمة من هذه المكتبة ، حتّى إنه أراد أن يغيّر شرط الواقف ، وأن يقرر السماح بالإعارة إلى خارجها ، وصنف في ذلك « بذل

(٦٢) الضوء اللامع ٤ : ٦٦ .

(٦٣) بهجة العابدين : ٢٣ .

(٦٤) خطط المقريزي ٣ : ٣٦٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المجهود في خزانة محمود » .

إذن بدأ السيوطي حياته الرسمية عام ٨٧٢هـ = ١٤٦٧ م عندما تولّى منصب المشيخة في المدرسة الشيخونية ، ثم تولّى مشيخة الصوفية بتربة برقوق[٦٥] نائب الشام وذلك في ربيع الآخر سنة ٨٧٥هـ . وفي عام ٨٩١هـ انتقل إلى مشيخة الخانقاه البيبرسية[٦٦] وقد شغرت بوفاة متوليها ، فوليها السيوطي ، وسأدع السيوطي يحدّثنا بنفسه عن ولايته البيبرسية وعن مواقفه من السلطان ، قال : « ثم شغرت مشيخة الخانقاه البيبرسية بوفاة الشيخ جلال الدين البكري[٦٧] فأرسل إليّ السلطان – ويعني به الأشرف سيف الدين قايتباي[٦٨] (٨٧٢ – ٩٠١هـ) – فطلعت إليه وولاّنيها في ربيع الآخر من السنة ٨٩١هـ ، ولم أطلع إليه بعد ذلك مع إرساله إليّ مرات يطلب مني الطلوع أول كل شهر ، فأجبت قاصده بأني أحبّ سلوك طريق السلف ، فإنهم كانوا لا يترددون إلى الملوك إلا المرات اليسيرة في عمرهم ، فلما كان أول المحرم سنة تسع وتسعين [وثمان مئة] أتى قاصده إليّ يذكر أنه رسم بطلوعي إليه ، أنا وجماعة التربة ، فطلعت أنا والجماعة إليه ، ودخلت بطيلساني على العادة ، فقال : أنت مالكيٌّ حتى تتطيلس ؟ لأنه كان يظنّ أن الطيلسان مختصّ بمذهب المالكية ، لكون القضاة الأربعة لا يطلع منهم بالطيلسان إلاّ المالكيّ فقط ، وهذه عادة حدثت قريباً ، وكان

---

(٦٥) برقوق ابن أنص الملك الظاهر (٧٣٨ – ٨٠١هـ) أول من ملك مصر من المماليك الجراكسة .

(٦٦) الخانقاه البيبرسية : انظر خطط المقريزي ٣ : ٤٠٤ وحسن المحاضرة ٢ : ٢٦٥ .

(٦٧) التحدث بنعمة الله ١٦٣ .

(٦٨) قايتباي : الأشرف قايتباي المحمودي . حسن المحاضرة ٢ : ١٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الزمن القديم إلى أيام السُّبكي[٦٩] الطيلسانُ شعارَ القاضي الشافعيّ ، وخاص به من بين القضاة ، وفي طبقات السبكي وغيرها إشارة إلى ذلك . فقلتُ له : الطيلسان سنّةٌ في كلّ مذهب ، لا يختصّ بالمالكية . فقال : هذا تكبّر وتجبّر ، وبالغ في التشديد . فقلت له : معاذ الله ، بل سنّة رسول الله ﷺ ، ثم إنه تأدّب في بقية المجلس ، وأحسن القول ، وصرف المعلوم المنكسر لي وللجماعة ، ثم رجعت من عنده . وكان بعد أيام بلغني أن إمامه إبراهيم بن الكركي قال له : ليس الطيلسان سنّة ، ولو كنت حاضراً وقال لك إنه سنّة ، لقلت له : إنّه سنّة اليهود . فقلت : إن كان ابن الكركي قال ذلك فقد كفر ، ولو كان حاضراً وقال ذلك لكفّرته بحضرته .. ثم ألفتُ مؤلفاً حافلاً سميته : الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان[٧٠] » ويتحدث السيوطي كثيراً عن مجابهته للسلطان ، وتأييه عليه ، ويعتزّ بذلك ، وما ذلك إلا لأنه كان يعتقد أنّ أولي الأمر في أيامه لا حقَّ لهم بإمرة الأمة ، وأن العلماء — وهو منهم — هم الأحقّ بولاية هذا الأمر ، ويؤكد ما نذهب إليه ، ما ذكره تلميذه عبد القادر الشاذلي[٧١] أنه كان عنده في جامع

---

(٦٩) السبكي : علي بن عبد الكافي ، تقي الدين ، أبو الحسن ، قاضي القضاة (٦٨٣ – ٧٥٦هـ) ، انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى لابنه تاج الدين ٦ : ١٤٦ وقد صنعت ترجمة لحياته وجريدة لمؤلفاته ونشرتها مجلة التراث العربي بدمشق ، العدد ١٧ محرم ١٤٠٥/ تشرين أول ١٩٨٤ .

(٧٠) الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان = في وصف .. نشر في القدس بتحقيق أرازي . الجامعة العبرية ١٩٨٦ .

(٧١) عبد القادر بن محمد بن أحمد الشاذلي ، تلميذ السيوطي ، ومصنف كتاب « بهجة العابدين بترجمة الشيخ جلال الدين » توفي بعد سنة ٩٤٥هـ . ففي كتابه بهجة العابدين ص ٩١ ذكر حادثة جرت سنة ٩٤٦هـ . وهذا أصح مما ذكره الزركلي من أن وفاته سنة ٩٣٥هـ . الأعلام ٤ : ٤٣ وإيضاح المكنون ١ : ٢٠٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طولون « عندما أتى إليه نقيب الجيش يونس الطويل وخاطبه على لسان الملك الأشرف قانصوه[٧٢] بسبب شكوى أهل البيبرسية فيه ، وقال له : كلّم السلطان ... فقال الشيخ في الجواب وهو متكئ بذراعه الأيمن على وسادته ، وهو في غاية الرياضة ، لم يتحرك ولم يختلج : مالي وللسلطان ؟ إن كان للسلطان عندي حاجة فليأت إلى عندي .. فقال له نقيب الجيش ثانياً من باب الإغلاظ عليه : أجب وليّ الأمر ، فقال الشيخ : اسكت وإلا أنني أفتي بكفرك وضرب عنقك .. مَنْ هم أولو الأمر ؟ نحن أولو الأمر ، أولو الأمر العلماء .. مثلُك يخاطبني بهذا الكلام ؟! »[٧٣] .

وخلاصة الكلام أن السيوطي ترك مشيخة البيبرسية ولم يعد إليها ، مع أن السلطان قانصوه الغوري عرض عليه أن يكون شيخ مدرسته التي أنشأها بقصبة القاهرة فلم يقبل ، وعرض عليه العودة إلى مشيخة البيبرسية فلم يقبل ، واعتزل الناس منصرفاً إلى التصنيف . قال تلميذه عبد القادر الشاذلي : « فكان – رحمه الله – من الزاهدين في مشيخة الصوفية بالغورية ، وفي مشيخة التصوف بالبيبرسية ، وفي مشيخة الحديث بالشيخونية ، وفي مشيخة التصوف بالبرقوقية .. وترك الجميع وزهد فيها ولم يلتفت إليها ، وكان إذا احتاج إلى شيء من النفقة باع تركته وأكل من ثمنها ، وبعتُ له كتباً كثيرة على يدي ، ولم يسأل مخلوقاً في شيءٍ من أمر الدنيا ، ولم يُعلم بحاله أحداً »[٧٤] وقضى السيوطي ما تبقّى له من أيامه في بيته يؤلف

(٧٢) قانصوه السلطان الغوري بن عبد الله الجركسي . بويع بالسلطنة بقلعة الجبل في القاهرة سنة ٩٠٥هـ . هزم أمام السلطان سليم العثماني وقتل في مرج دابق قرب حلب سنة ٩٢٢هـ . در الحبب ج٢ ق١ : برقم ٣٨١ والبدر الطالع ٢ : ٥٤ وشذرات الذهب ٨ : ١١٣ والأعلام ٥ : ١٨٧ .

(٧٣) بهجة العابدين : ٦١ – ٦٢ .

(٧٤) المرجع السابق : ٦٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويصنّف ، ويتردد عليه تلامذته والراغبون في علمه ، حتى كان ثاني عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٩١١هـ إذ داهمه المرض ، وكان ورماً شديداً في ذراعه اليسرى ، ومكث على ذلك سبعة أيام ، وتوفي سحرَ ليلة الجمعة في التاسع عشر من الشهر المذكور ، بمنزل سكنه وملكه بروضة مصر ، وقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وصلّى عليه الناس بجامع الأباريقي بالروضة عقب صلاة الجمعة ، وصلّى عليه مرةً ثانية خلائق كُثر بسبيل المؤمنين ، وكان له مشهد عظيم ، ودفن بحوش قوصون بخطّ باب القرافة في قبر والده الشيخ كمال الدين[٧٥] . ولما وصل نبأ وفاته إلى دمشق صلى عليه الناس فيها صلاة الغائب[٧٦] .

هذه سيرة السيوطي بإيجاز ، لم أعرض فيها لعلاقاته مع علماء عصره ، ولم أعرض لمؤلفاته ، ولم أتطرّق إلى تحليل دوافعه ورغباته في حياته ، ولم أناقش ما قيل فيه من مدح أو قدح .. لذلك كله رأيت أن أستوفي شيئاً ما مما أشرت إليه فيما يلي من هذا المقال .

إن من أقوى ما امتلأت به نفس السيوطي ، وفاض على قلمه رغبةً وتوقعاً ، وكاد يكون ادعاءً ، هو أنه مجدّد القرن التاسع ، وكان كثير اللهج بهذه الرغبة ، وفكرةُ مجدد القرن تستند إلى حديث نبويّ فحواه أن الله يبعث لهذه الأمة كل مائة سنة مَنْ يجدد لها أمر دينها ، وهذا المجدد لا يكون إلا مجتهداً ، فمن البدهي إذن أن تبدأ القضية بدعوى الاجتهاد ، وادّعاء الاجتهاد ليس سهلاً ، ولا يتمّ التسليم لصاحبه به إلا بعد لأي ، فكيف تمّ

---

(٧٥) المرجع السابق : ٨٤ .

(٧٦) مفاكهة الخلان ١ : ١٦٣ وذكر خطأ أنهم صلّوا عليه عام ٩٠٠ والصواب ماورد في الكتاب نفسه في أحداث ٩١١هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للسيوطي ادّعاء الاجتهاد ، وهل سلّم له علماء عصره بما أراد ، وكيف بدأ ذلك ؟

في عام ٨٨٨هـ كان السيوطي يخوض جدالاً مع أحد علماء عصره في مسائل[٧٧] ، وانحرف الجدال إلى خلاف وتحول إلى ما يشبه الشجار ، وأخذ كل واحد من المتجادلين يطعن في الآخر ، وكان على رأس المشاحنين الشيخ الجوجري شمس الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد ، فلمّا استهلّ عام ٨٨٩ ، والأقوال تكثر في السيوطي ، والضجة حوله قائمة ، أثار خصومه قضية دعوى الاجتهاد ، ودعوه إلى المناظرة ، فرفض بحجّة أنه مجتهد وهم مقلدون ، والمجتهد لا يناظر إلا مجتهداً ، فاشتدّت الثائرة عليه حتى قدم الشيخ عبد القادر الطحطوطي وسعى بالصلح[٧٨] .. ووضّح السيوطي أنه لم يصرّح بدعوى الاجتهاد علناً ، وإنما ذكرها أولاً في بعض الكتب ، فلما أشهر هذا الأمرَ خصومُه ، عَدَّ ذلك نعمةً من الله يجب التحدث بها ، ورفع عقيرته بدعوى الاجتهاد في مواضع من كتبه ، وبدعوى التفرد في مقدمات كتب أخر ، ثم حدّد تبحره في سبعة علوم ، قال : « قد رزقت – ولله الحمد – التبحّر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة المتأخرين من العجم وأهل الفلسفة ، بحيث أن الذي وصلت إليه في هذه العلوم سوى الفقه ، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحدٌ من أشياخي فضلاً عمّن دونهم ، ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الفرائض والإنشاء

---

(٧٧) التحدث بنعمة الله ١٨١ وكان الخصام مع الشيخ الجوجري شمس الدين محمد بن عبد المنعم المولود سنة ٨٢١هـ ، التحدث : ١٨٣ .

(٧٨) المرجع السابق ١٩٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والترسّل[٧٩] » وتابع السيوطي تعداد العلوم التي أتقنها ولكن دون الأول ، كالفرائض والقراءات والطب ، وذكر كراهيته لعلم الحساب وثقله على نفسه وضيق أخلاقه به ..

وذكر السيوطي العلوم التي بلغ فيها رتبة الاجتهاد المطلق ، فإنه بلغ هذه المرتبة في الأحكام الشرعية وفي الحديث النبويّ وفي العربية ، وقلّ أن تجتمع صفة الاجتهاد في هذه الثلاثة لأحد ، وقد وصف بالاجتهاد المطلق أناس لم تجتمع فيهم هذه الأمور كما اجتمعت لدى السيوطي ، وعدّ منهم أبا إسحاق الشيرازي[٨٠] وأبا نصرٍ بن الصباغ[٨١] وإمام الحرمين[٨٢] وحجة الإسلام أبا حامد الغزالي[٨٣] .

وتمكنت دعوى الاجتهاد في نفس السيوطي وترعرعت ، ولم تلبث أن نبتت منها فكرة المبعوثية ، وهي أمنية ما زال السيوطي يرددها في نفسه حتى جهر بها في مواضع ، وتمنى أن يكون هو المبعوث على رأس المائة ليجدد للناس أمر دينهم ، واحتج بما رواه أبو داود في سننه والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة

---

(٧٩) المرجع السابق ٢٠٣ .

(٨٠) أبو إسحاق الشيرازي : إبراهيم بن علي العلاّمة المناظر (٣٩٣ – ٤٧٦هـ) ، طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ٨٨ والأعلام ١ : ٥١ .

(٨١) أبو نصر بن الصباغ : عبد السيد بن محمد (٤٠٠ – ٤٧٧) ، طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ٢٣٠ ونكت الهميان ١٩٣ والأعلام ٤ : ١٠ .

(٨٢) إمام الحرمين : عبد الملك بن عبد الله الجويني أبو المعالي (٤١٩ – ٤٧٨هـ) ، طبقات الشافعية ٣ : ٢٢٩ والأعلام ٤ : ١٦٠ .

(٨٣) الغزالي أبو حامد محمد بن محمد ، حجة الإسلام ٤٥٠ – ٥٠٥ طبقات السبكي ٤ : ١٠١ والأعلام ٧ : ٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سنة من يجدّد لها دينها[٨٤] » . قال الحافظ أبو الفضل العراقي[٨٥] في تخريج أحاديث الإحياء[٨٦] : إسناده صحيح . وعدد السيوطي مَنْ يعتقد أنهم مجددو الدين خلال القرون الخالية ، فكان أولَهم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[٨٧] في رأس المائة الأولى ، والإمام الشافعي محمد بن إدريس[٨٨] في المائة الثانية ، وأبو العباس بن سريج[٨٩] في الثالثة ، أما مجدد المائة الرابعة فقد اختلف في تحديده ، فذهب بعضهم إلى أنه الشيخ الإمام أبو حامد الإسفرائيني[٩٠] وبعضهم ذهب إلى أنه الأستاذ سهل بن أبي سهل الصُّعلوكي[٩١] ، ومجدد الخامسة حجة الإسلام أبو حامد الغزالي[٩٢] ، ومجدد السادسة الإمام فخر الدين الرازي[٩٣] ومجدد السابعة تقي الدين بن

(٨٤) الحديث في شرح الجامع الصغير ١ : ١٢٥ عن أبي داود والحاكم ، وعن البيهقي في المعرفة عن أبي هريرة . حديث صحيح .

(٨٥) أبو الفضل العراقي : عبد الرحيم بن الحسين ، زين الدين ت ٨٠٦هـ .

(٨٦) طبع كتابه المذكور بذيل كتاب إحياء علوم الدين للغزالي . ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

(٨٧) عمر بن عبد العزيز ، أمير المؤمنين (٦١ – ١٠١هـ) . تهذيب التهذيب ٧ : ٤٧٥ والأعلام ٥ : ٥٠ .

(٨٨) الشافعي محمد بن إدريس (١٥٠ – ٢٠٤هـ) . طبقات الشافعية ١ : ١٨٥ والأعلام ٦ : ٢٦ .

(٨٩) أبو العباس بن سريج : أحمد بن عمر (٢٤٩ – ٣٠٦هـ) فقيه الشافعية في عصره . طبقات الشافعية ٢ : ٨٧ والأعلام ١ : ١٨٥ .

(٩٠) أبو حامد الإسفرائيني : أحمد بن محمد (٣٤٤ – ٤٠٦هـ) ، طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ والأعلام ١ : ٢١١ .

(٩١) الصُّعلوكي : سهل بن محمد بن سليمان ت ٣٨٧هـ . الأعلام ٣ : ١٤٣ .

(٩٢) انظر التعليق ٨٣ .

(٩٣) فخر الدين الرازي : محمد بن عمر (٥٤٤ – ٦٠٦هـ) الإمام المفسّر . طبقات الشافعية ٥ : ٣٣ والأعلام ٦ : ٣١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دقيق العيد[٩٤] ، أما مجدد الثامنة فهو الإمام سراج الدين البلقيني[٩٥] أو ناصر الدين بن بنت الميلق الشاذلي[٩٦] أو زين الدين العراقي ، وذلك لأن « تعيين المجدد إنما هو بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه[٩٧] » ويقول السيوطي عن نفسه بعد ذلك : « فنحن الآن في سنة ست وتسعين وثمانمائه ، ولم يجئ المهديّ ولا عيسى ولا أشراط ذلك ، وقد ترجّى الفقير من فضل الله أن ينعم عليه بكونه المجدد على رأس المائة ، وما ذلك على الله بعزيز[٩٨] » وكرر هذه الفكرة أو لنقل هذا الهاجس في مواضع عدة ، منها ما ورد بصيغة الترجي ، ومنها ما ورد بصيغة الادعاء ، ففي رسالته « رسالة فيمن يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة » يقول : « إني ترجيت من نعم الله وفضله ، كما ترجى الغزالي لنفسه ، أني المبعوث على رأس هذه المائة التاسعة لانفرادي عليها بالتبحّر في أنواع العلوم .. وقد اخترعت علم أصول اللغة وورّثته ، ولم أُسبق إليه ، وهو على نمط علم الحديث وعلم أصول الفقه ، وصارت مصنفاتي وعلومي في سائر الأقطار ووصلت إلى الشام والروم والعجم والحجاز واليمن والهند والحبشة والمغرب والتكرور وامتدت إلى البحر المحيط ، ولا مشاركة لي في مجموع

---

(٩٤) ابن دقيق العيد : محمد بن علي (٦٢٥ – ٧٠٢هـ) . الأعلام ٦ : ٢٨٣ .

(٩٥) سراج الدين البلقيني : عمر بن رسلان (٧٢٤ – ٨٠٥) . حسن المحاضرة ١ : ٣٢٩ .

(٩٦) ناصر الدين بن الميلق . قاضي القضاة محمد بن عبد الدائم (٧٣١ – ٧٩٧) حسن المحاضرة ١ : ٥٢٧ .

(٩٧) التحدث بنعمة الله : ٢٢٥ .

(٩٨) المرجع السابق : ٢٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما ذكرته[٩٩] » فالرجل يربط بصراحة بين كثرة مصنفاته وتنوعها وبين كونه مبعوث المائة التاسعة ، وكأن استقرار هذه العقيدة في نفسه كان يدفعه إلى الإكثار من التأليف وإلى تنويعه .. وفي كتابه « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف » وصل إلى حدّ الادّعاء صراحة بأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة قال : « فإنّ ثم من ينفخ أشداقه ويدّعي مناظرتي ، وينكر عليّ دعوى الاجتهاد والتفرّد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضني ، ويستجيش عليّ بمن لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخةً صاروا هباءً منثوراً[١٠٠] » .

إنّ مثل هذه الشخصية في مثل ذلك العصر لن يسلّم لها أقرانها بما تدّعيه ، ولن يقبلوا منها مثل هذا الادّعاء الذي يحمل كل معاني الكبْر والإدلال ، فلا عجب أن طعن بعض معاصري السيوطي في علمه ، ونسبوه في تصانيفه إلى سرقة ما لغيره ، ولم يكن قلمه متواضعاً ولا رفيقا ، بل إنه كان إلى العنف والقسوة أقرب منه إلى الرفق ، فتراه يصنّف مثلاً « الكاوي لدماغ السخاوي » والسخاوي في طبقة شيوخه[١٠١] ، بل إن السيوطي تردد عليه في أول الطلب ، وتراه في أمر يسير يتطاول على علماء عصره ، فقد ذكر أنه سئل عام ٨٨٨هـ عن قوله « وإليك نسعى ونحفد » هل هو بالدال المهملة أو بالذال المعجمة ، فكتب أنه بالدال المهملة ، فشنّع عليه الجاهل – كما يقول – وأتباعه زاعمين أنها بالذال المعجمة ، فكتب السيوطي قائلاً « فانظروا بالله إلى هؤلاء الذين عاشوا في بلاد المسلمين ستين سنة ،

---

(٩٩) عن مقدمة نظم العقيان التي كتبها الدكتور فيليب حتي .

(١٠٠) المرجع السابق .

(١٠١) السخاوي : محمد بن عبد الرحمن (٨٣١ – ٩٠٢) ، الضوء اللامع ٨ : ٢ والأعلام ٦ : ١٩٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهم يلحنون في قنوتهم وصلاتهم ، ولا يحسنون التلفظ فيها ، ومع ذلك يعتمّون بعمائم الفقهاء ، ويمدّون ألسنتهم للإنكار على أساطين العلماء[١٠٢] » — يعني نفسه — .

وخلاصة القول إن اعتداده الشديد بنفسه ، وزهوه بها ، والمباهاة بعلمه ، والإدلال باطلاعه ، ورمي غيره بالجهل ، كلها أمور أفسدت عليه قلوب أقرانه فمنهم من عفّ وغض الطرف ونزه لسانه وصان قلمه عن الخوض في السيوطي ، ومنهم من كال له بكيله ، وردّ عليه وجابهه .. ونستطيع اليوم أن نقول وقد فصلت بيننا وبينهم مئات السنين : إن ادّعاءات السيوطي لم تكن محتملة ، وهي الآن ليست محتملة ، كما أنّ تكبّره على أقرانه الذين يساوونه علماً وفضلاً وخلقاً أو يفوقونه بلا ادعاءٍ منهم ، لم يكن مستساغاً وليس الآن مستساغاً ، كما أنّ مايدّعيه في مقدّمات بعض كتبه من ابتكار لعلم أصول النحو أو علم أصول اللغة أو غيرها ، إنما هو مجرد كلام تشتمل عليه مقدمة الكتاب ، فإذا ما رجعت إلى موضوعات الكتاب وفحصت عنها ، لم تجد له فيها شيئا ، إلا بعض الترتيب والتنسيق في بعض منها ، فهي فصول وصفحات منقولة ومجموعة من هنا وهناك كما ينصّ هو نفسه على ذلك ، وأوضح مثال نقدّمه كتابه « الاقتراح في علم أصول النحو[١٠٣] » فإنه صرّح في مقدّمته أنّ هذا الكتاب « لم تسمح قريحة

---

(١٠٢) التحدث بنعمة الله : ١٨١ .

(١٠٣) الاقتراح في أصول النحو وجدله : طبع في الهند مرتين ١٣١٠ و ١٣٥٩هـ ونشر بحلب مصوراً عن طبعة الهند . ثم نشر في القاهرة بتحقيق أحمد محمد قاسم ١٣٩٦هـ وفي كلية الآداب بإستانبول بتحقيق أحمد صبحي فرات . ثم نشر بتحقيق الدكتور محمود فجّال في السعودية وصدر عن مطبعة الثغر ١٤٠٩هـ . ونشر أيضاً كتاب الإصباح في شرح الاقتراح تأليف الدكتور فجال بدار القلم بدمشق ١٤٠٩هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بمثـــاله ، ولم ينسـج نـاسـج على منواله ، في علـم لم يسبقـه أحد إلى ترتيبه[١٠٤] » . وعلماء العربية من عصر السيوطي إلى عصرنا هذا ، يعرفون أن أبا البركات كمال الدين بن الأنباري ، كان هو السبّاق في كتابه « لمع الأدلة في أصول النحو[١٠٥] » وكان السيوطي بذلك عارفاً ، لأنه نقل من هذا الكتاب ثمانية عشر فصلاً بتمامها ، ثم أعقبها بنقولٍ من « الخصائص » لابن جني . وبذلك انتهى الكتاب ، وتبحث في هذه الفصول عن السيوطي وعن رأي له بسيط ، فلا تجده ، لأنه ليس له إلاّ المقدّمة ، وقل مثل ذلك أو قريباً منه في كتابه العظيم الذي جمع فيه فأوعى ، وهو « الإتقان في علوم القرآن » .

ومما له دلالة على طبعه ، وعلى ما اشتملت عليه نفسه من كبر وزهو ، ما حدث للإمام القسطلاني معه ، والقسطلاني هو الإمام شيخ الإسلام شهاب الدين ، كانت سنّه مقاربةً لسنّ السيوطي ، فقد كانت ولادته عام ٨٥١هـ ، وكان السيوطي يزعم أن القسطلاني يغير على كتبه ، ويسرق منها – وهما ينهلان من المناهل نفسها – ولم يكن من القسطلاني إلا أن قصد إليه من القاهرة إلى مقر سكنه بالروضة حافياً مكشوف الرأس ، وقرع عليه الباب فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا القسطلاني جئت إليك حافياً مكشوف الرأس ليطيب خاطرك عليّ . فقال له : قد طاب خاطري عليك . ولم يفتح له الباب ولم يقابله[١٠٦] .

---

(١٠٤) الاقتراح ١١٧ طبعة الدكتور فجّال .

(١٠٥) لمع الأدلة : نشره الأستاذ سعيد الأفغاني مع كتاب الإغراب في جدل الإعراب بجامعة دمشق .

(١٠٦) انظر مقدمة المحقق لكتاب « لطائف الإشارات لفنون القراءات » ١ : ١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد ، ومهما يكن من أمر ، فإن صغائر الأمور بددتها دورة الدهر ، ولم يبق من كبْر السيوطي وزهوه إلا الحبر والورق ، وعلاقاته مع أقرانه غبرت فيما غبر ، ولم يبق بعدهم إلا أعمالهم وآثارهم التي عمّ الانتفاع بها إلى يوم الناس هذا ، ولا تزال كتب السيوطي إلى يومنا هذا مرجع العلماء ، رحمه الله رحمةً واسعة ، وسبحانه عزّ من قائل : ﴿ فأمّا الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾[١٠٧] .

(١٠٧) الرعد ١٣/١٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net